أسباب اتخاذ الآلهة

م.م. رشيد محمود رشيد*

ملخص البحث

إن فكرة الدين ووجود إله هي ملازمة لوجود الإنسان على هذا الكوكب, وهذه حقيقة تاريخية, إلا أن العلماء في القرون المتأخرة اختلفوا في تفسير ظاهرة العبودية عند هذا الكائن المفكر واتخاذه إلهاً لنفسه وكان سبب هذا الاختلاف هو التوسع الكبير للعلوم وظهور تخصصات عديدة متباعدة في مجالاتها, وانعزال كل علم في مجاله الخاص ومحاولة تفسير الظواهر الطبيعية والنفسية والاجتماعية من زاوية النظر الخاصة به لذا ظهرت نظريات مادية وأخرى نفسية أو تاريخية أو اجتماعية وغيرها.

إن الباحث في مجال علم الإنسان (الأنثروبولوجي) وليتخطى القصور الذي لازم الدراسات السابقة في الناحية الغيبية من الفكر الإنساني وجب عليه الشمول والعموم والتزام الدراسات البينية في دراسته للإنسان وعدم إهمال أي جانب من جوانبه وهذا ما يحاول هذا البحث انتهاجه للإجابة على التساؤل حول سبب اتخاذ الإنسان للإله.

Abstract

The idea of religion and the presence of God is inherent to the existence of man on this planet, and this is a historical fact, but scientists in the late centuries differed in the interpretation of the phenomenon of slavery and worshipping gods. One of the reasons for this difference is the great expansion of science and the emergence of many specialties spaced in their fields, And try to explain the natural phenomena, psychological and social from the perspective of the view of that science.

* مدرس مساعد في كلية العلوم الاسلامية/ قسم الشريعة/ جامعة الموصل.

The researcher in the field of anthropology to overcome the shortcomings that are required in the previous studies in the area of the absence of human thought must be comprehensive and general in his study of man and not neglect any aspect of this aspect of this research attempts to answer the question about why the human worship god.

المقدمة

الحمد لله الذي احتارت بوصفه العقول فوصف نفسه بخير ما تقبله العقول فكان وصفه على لسان المرسلين بأتمّ ما وصفه البشر أجمعون, (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)

والصلاة والسلام على السراج المنير, والهادي من تيه الضلال إلى صراط رب العالمين, ومن ظلمات الجهل إلى معرفة نور السموات والأرضين, سيدنا محمد ﷺ, وعلى الآل والصحب المكرمين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا البحث يناقش واحداً من أهمّ الموضوعات التي شغلت الفكر الانساني على مدى تاريخه: الجانب الغيبي, وأهم ما في هذه المسألة هو: الإله, والأسباب الدافعة للإنسان أن يتخذ أو يصنع له إلهًا.

إن استقراء الأسباب التي تؤدي بالإنسان إلى إخضاع نفسه إلى قوى كونية أو بشرية أو غيرها, والتذلل لها, طلباً لشعور داخلي بالاستقرار والأمان والطمأنينة, يبين بأن أبرز تلك الأسباب هي: إما أسباب نفسية, أو أسباب مادية, أو أسباب اجتماعية.

أما عدم إدراج الفكر من ضمن أسباب اتخاذ الآلهة, كون الفكر المتجرد والمستند إلى المنطق والأصول الصحيحة, لا يمكن أن يؤدي إلى صناعة آلهة؛ لأنه عند تفكر الإنسان بوضعه في الكون والآيات والدلائل المشاهدة, يكون مخالفاً للمنطق, أن يشكل مخلوق خالقه أو مصنوع صانعه.

خطة البحث:

اقتضت خطة البحث تقسيمه إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وهي الآتي:

المبحث الأول: الأسباب النفسية وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أسباب ناتجة عن الصفات الخَلقِية

المطلب الثاني: أسباب ناتجة عن الصفات الاختيارية

المبحث الثاني: الأسباب المادية, واشتمل على المطالب الآتية:

المطلب الأول: السلطة والقوة

المطلب الثاني: المال

المطلب الثالث: اللذة

المبحث الثالث: الأسباب الاجتماعية واشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الألفة والعادة

المطلب الثاني: الصحبة أو القرين

المطلب الثالث: الحميّة.

الخاتمة: وبينت فيها أم النتائج التي توصلت إليها في البحث

وهذا الجهد هو نتاج بشري فما كان فيه من توفيق فمن الله وحده وما كان من خطأ فمني وأسأله تعالى التوفيق والسداد في الفكر والقول والعمل.

المبحث الأول

الأسباب النفسية

يَعتبر علماء النفس أنه حيثما يوجد الإنسان في هذا الوجود, فالعوامل النفسية معتبرة, وبالتالي لا بد أن تبرز قيمة الدراسات النفسية[١]. ولكن قبل البدء بذكر الأسباب النفسية, وجب أن نتفق على تعريف للنفس؛ لتحديد مجال البحث.

فالنفس تطلق في اللغة على الروح, فيقال: خرجت نفسه أي روحه, وتطلق على الذات, يقال: قتل نفسه إذا أوقع الهلاك على ذاته[٢].

وفي الاصطلاح تطلق على (الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية)[٣] وهي بهذا مرادفة للذات البشرية.

لازالت النفس الإنسانية تحير الفلاسفة والعلماء فكلما تقدموا خطوة في جانب من جوانبها وجدوا أنفسهم أمام ألغاز يصعب حلها, حتى وصلت تخصصات دراسة علم النفس إلى أكثر من خمسين فرعاً.

فبعد عصر النهضة وفي مرحلة سطوة العقل, كان البحث حثيثاً عن سبل لتحقيق السعادة النفسية, فتم تحرير الإنسان من جميع قيوده, وحوّل إلى أداة ميكانيكية؛ ليستطيعوا تطبيق الحسابات الرياضية عليه, ويضعوه تحت القياسات المختبرية, وبذلك أخرجوا كل ما يتعلق بمشاعر الإنسان, وقيمه, ومعرفته بالخير والشر, والغيبيات, فأصبح علم النفس علماً يفتقر إلى موضوعه الرئيسي: أي الروح[٤].

ثم أتى فرويد[٥] وفي بحثه عن الروح ألغى الإله وجعله من توهمات "العقل الباطن" –ويعد عند فرويد الوجود الحقيقي– وتعويضاً عن فكرة طفولية وهي الحاجة إلى حماية الأب, وأن العقل الباطن يعوض الأب بفكرة الإله[٦], ولا يخفى لأي باحث مدى سذاجة هذه الفكرة وتأثرها بالفكر

اليهودي والمسيحي معاً والذي يتحدث عن أبوة الرب "الآب" من جهة والفكرة الدارونية بأن الإنسان أصله قرد ونشأ من الطبيعة من جهة أخرى, والذي يثبت ذلك أن الأستاذ المشرف عليه في كلية الطب كان أحد دعاة الدارونية(٧).

إن النفس البشرية مسؤولة مسؤولية مباشرة, عن كل تصرفاتها, وبالتالي هي المحاسَبة عن كل خطأ ترتكبه, قال تعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨], وهي تتمتع بخصائص فريدة من نوعها, فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يحمل بين جنبيه أداة الاختيار بين الخير والشر, إضافة إلى تسليط عدوه الخفي عليه "الشيطان" ووسوسته: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧], فكان بذلك أعظم ابتلاء من الجانّ, والتي استفادت من هداية بني آدم ولم تتضرر من كيدهم. وبهذا يكون الانسان أكرم مخلوقات الله لكونه أشدها ابتلاء.

ولكي يتجاوز وينجح في هذا الابتلاء, فإنه بحاجة إلى خصائص نفسية فريدة وضرورية لهكذا اختبار, وتتوزع الأسباب النفسية بين صفات خلقية, وأخرى اختيارية, والفرق بينهما أن الأولى لا يلحقه الإثم منها بعكس الاختيارية التي قد يأثم أو يؤجر عليها؛ لأنه قادر على اختيار أضدادها, وهي الآتي:

المطلب الأول: أسباب ناتجة عن الصفات الخَلقية:

وهي أسباب نستطيع أن نسميها إيجابية لأنها من الصفات الضرورية في إكمال الذات الإنسانية, فالإنسان مخلوق في أحسن تقويم, وإن نظر إليها البعض على أنها نقائص, ولكن كحال كثير من الأشياء التي لا يدرك الإنسان الغاية الحقيقية من وجودها, يصفها بأوصاف غير صحيحة, ومع تقدم العلوم واكتشاف المزيد, يتبين خطأ تلك التصورات.

كمثال الألم, فرغم كل الوسائل التي يتبعها الانسان في القضاء على الألم, إلا أنه لا يمكن تصور حياة بلا ألم.[٨]

وهذه الأسباب هي:

أولاً: الفطرة:

أختلف العلماء في تعريف مصطلح الفطرة على أربعة أقوال:

القول الأول: إنها البداء أو الخلقة، والسلامة، والتهيؤ للقبول, كما في قوله تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الشورى: ١١], ومن قال بذلك أنكر أن يفطر المولود على كفر وإيمان، أو معرفة أو إنكار، وقالوا: إنما يولد المولود في الغالب على السلامة خلقةً وطبعًا, ومهيأً لقبول الدين[٩].

القول الثاني: الفطرة هي الإسلام, لأنهم لو تركوا وما خلقوا عليه أدى ذلك بهم إليها[١٠].

القول الثالث: الفطرة هي السنة, أو(الطريقة), التي جعلها الله تعالى في كل طفل من المعرفة ما يعرف وحدانية ربه وربوبيته؛ كما جعل لهم معرفة ما فيه غذاؤهم وقوامهم من أخذ ثدي أمهاتهم في حال صغرهم[١١].

والقول الرابع: الفطرة هي الميثاق والعهد المأخوذ على ذرية آدم[١٢], في قوله تعالى: {وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى} [الأعراف: ١٧٢].

والمعاني السابقة متقاربة فيما بينها فالعهد والميثاق سابقٌ لخلق الإنسان, كما أن البداء والسنة الخلقية والإسلام بمعناه اللغوي فيها نوع من التقارب والترادف. بما تقدم من تعريف معاني الفطرة في الفصل الأول يمكن القول بأن الخالق قد خص كل مخلوق بما يتناسب والغاية التي خلق من أجلها, ولا يخرج الإنسان من هذه القاعدة.

فكما أن الغرائز الحيوانية موضوعة للقيام بواجبات البقاء, وحفظ النوع, وفق منهج محدد من الإطعام والتناسل والرقاد وغيرها, فإذا استعملت تلك الغرائز بغير المنهج الملائم, أدت إلى أضرار وأمراض, وإذا لم يتم إشباع تلك الحاجات, يترتب عليه حالة تأزم نفسي أو إحباط [١٣].

كذلك الفطرة الإنسانية تعد منبها إلى الوجود الغيبي لكائن متعال وموجد للأشياء, وفق منهج محدد, ويقتضي الخلو من المؤثرات البيئية أولاً؛ للمحافظة على نقاء الفطرة, ثم إيجاد الصراط المستقيم الكفيل بحفظ تلك الفطرة من الأسقام والانحرافات.

فالإنسان الخائف حين يلتجئ إلى ذلك الكائن الغيبي إنما يكون الخوف سبباً للفت الانتباه, كما أن الجوع يحركه للبحث عن الطعام, فلم نجد عالماً يطعن في الشعور بالجوع أو يصفه بأنه وهم, فالتلازم الذهني والخارجي[١٤] موجود في الحالتين بين المنبه والموضوع, وليس الأمر تخيلاً ذاتياً.

إنما الفارق بين الأمرين أن الموضوع الغرائزي مشاهد باطراد في الإنسان والحيوان, بينما الفطرة الدينية مقتصرة على الإنسان, فالدراسات التي تتناول الجانب المادي الحيواني في الإنسان تنكر تلك الفطرة.

ثم إن الخلل في الغريزة الإنسانية, الناتج عن أخطاء سلوكية, قد يؤدي إلى تناول المخدرات أو الدخان أو الشذوذ الجنسي, بينما الخلل في الفطرة, والناتج أيضاً عن أخطاء سلوكية على مستوى الأسرة أو البيئة, يؤدي به إلى صناعة واتخاذ آلهة مختلفة, فترى الفرد ينتقل من مذهب إلى مذهب ومن عقيدة إلى أخرى, في سبيل إشباع تلك الفطرة.

إن اتخاذ الروحاني الغيبي أشكالاً متعددة, هي في جلّها أشكال ورموز حسية مشهودة من أوثان أو آلهة, على مدى التاريخ, لهو دليل الحاجة الفطرية بعدم خلو عصر من تلك الأرباب,

فتلبية تلك الحاجة النفسية بأبسط صورها مع استغناء العقل عن علوم الوحي واكتفاءه بمصدره الذاتي نتج عنه ذلك الطيف من الأرباب أو الآلهة.

لقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ قوله: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء[١٥]))[١٦]، أي أن كل مولود فيما لو ترك بحاله, ولم يطرأ عليه من محيطه ما يصده عن النظر الصحيح من التقليد للأبوين أو فساد التربية والألف بالمحسوسات والانهماك في الشهوات, ونظر في الدلائل على التوحيد نظراً صحيحاً, لعرف الصواب وهدي إلى الرشد, ولكن يصده عن ذلك أمثال تلك العوائق[١٧].

وأثبتت الأبحاث العلمية: أن البشر يولدون وهم مهيؤون للاعتقاد بالإله الواحد وبالحياة الآخرة والسببية, لوجود معلومات داخلية في كل فرد لا علاقة لها بالوراثة, كما يؤكد علماء من جامعة أوكسفورد أن الاعتقادات الدينية للبوذيين أو الهندوس أو اليهود والنصارى وغيرهم, تأتي حسب التعاليم التي يلقنها الآباء للأبناء، وتختلف من ثقافة لأخرى، ولكن الشيء الذي يوجد في أعماق الإنسان ويولد معه, هو: الإيمان بالله واليوم الآخر[١٨].

إذاً الفطرة هي وسيلة مهيأة للإنسان في المجال الروحي, خاضعة لاختياره, فإذا ما أسيء استعمالها أدت إلى اتخاذ آلهة مزيفة.

ثانياً: الموت:

صفة ملازمة للمخلوقات بصفة عامة, وللإنسان بشكل خاص, قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

والموت انتقال النفس من حال إلى حال وليس عدمًا, بحيث يذوق مفارقة الروح للجسد؛ ولهذا ذكر الباري عز وجل بأنها تذوق الموت[١٩], وهو من أقوى أسباب اضطراب النفس؛ لأن كل

ما حققه الإنسان المادي, متوقف على وجوده في هذه الحياة, ليتمتع بمنجزاته, والموت قاطع لكل ذلك.

إن الإنسان ليعلم بداهة, أن لكل فرد ساعة حتمية يفارق فيها الحياة, ومنذ خلق آدم عليه السلام والإنسان يبحث عن الخلود, فالموت من أقوى الدوافع إلى البحث عن الحياة الأبدية, واستغلال الحياة في سبيل الوصول إليها, وذلك بمعرفة من يملكها على الحقيقة, فإن وجده كان هو المطلوب, وإن لم يجده لم تزل نفسه مضطربة, فتراه إما أن يخترع له آلهة يتصور فيها الكمال, أو يحاول أن يستمتع بكل ما يقدر عليه في الحياة وهذا غاية ما يستطيع في استغلال زمنه, أو يصل إلى حالة من الانفصام الشخصي بأن يجمع بين الحالتين[٢٠].

إن فكرة الحياة الأخرى بعد الموت, وجدت عند أكثر أمم الأرض, ولم ينكرها إلا الدهريون, ورغم يقين الإنسان بحقيقة الموت, إلا أنّ الكثير من الناس إما لاهٍ عن الحقيقة, قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر: ١، ٢], أو أنه متشبث بالحياة, أيّة حياة كانت, ومستعد للتضحية في سبيلها بأي شيء, من القيم والأنفس حتى وإن أدى ذلك إلى إبادة شعب كامل, فالبقاء للأصلح والأقوى, وهو الأصلح[٢١]!

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴾ [البقرة: ٩٦]. فبرزت مفاهيم الصراع على العلاقات الإنسانية, وأخذ البعض ينادي بالتخلص من الأضعف في المجتمع, كالمرضى والفقراء, فقانون الانتخاب الطبيعي[٢٢] هو الذي سيتولى أمر إبقاء من يستطيع الاستمرار في مضمار الحياة على حساب الآخرين.

ثالثاً: الهلع أو "الخوف":

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩-٢١].

إن الهلع من الصفات الخَلقية وليست صفة سلبية كما قد يتصورها البعض[٢٣]؛ بل هي صفة دافعة[٢٤], يقول الفخر الرازي رحمه الله: (أما الحالة النفسانية التي هي الهلع في الحقيقة فهي مخلوقة على سبيل الاضطرار)[٢٥].

إن جزع الإنسان من الشر, ورغبته بالتملك تجعله باحثاً عن الأسباب المؤدية لإشباع تلك الرغبات, فكانت منظومة الثواب والعقاب, زائداً الخوف والهلع منظومة متكاملة.

فخشية الإنسان من الموت ورجاؤه للخلود ورغبته بالامتلاك, كان كل ذلك سببًا دافعاً لارتكاب أول معصية, ولو لم ينس الإنسان لبقي في الجنة, حيث وعد من قبل الله تعالى بوعود عديدة: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾ [طه: ١١٨ - ١٢٠].

فالعقل يتحمل مسؤولية البحث, عمَّا يسكن ذلك الشعور ويقطع دواعيه, بالتعرف على المالك الحقيقي لمقاليد الأمور.

إن الهلع مثل الألم الدافع للابتعاد عن سببه والبحث عن علاج له, فهو شعور نفسي دافع لطلب المعرفة بالإله الحق, وقطع أسبابه بالطمأنينة, بالصلاة والصدقات وباقي الأسباب, الدالة على التصديق باليوم الآخر, والذي عن طريقه يحصل على الخلود والملك الموعود, قال تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

أما من لم يتعرف على طريق الوحي فإن الهلع والاضطراب من رغبته في جمع المزيد والجزع على نفسه من وجود "الشرور", والموت الحتمي, تثير في النفس حالة القلق المرضي والذي يشعر الفرد فيه بالضيق والهم بشكل لا يجد معه تفسيراً موضوعياً ومثل هذه الدرجة من القلق قد تصاحبها مشاعر التهديد لكيان الفرد(٢٦).

وقد يجعله يتوجه لما يعتقد أن فيه الطمأنينة والاستقرار من عبادات مخترعة في محيطه, فإن لم يجد في ذلك شيئاً من الاستقرار الذي يرجوه, اتَّهم نفسه بسوء الفهم, فكان حاله حال "الملك العاري"(٢٧), أما إن تمتع بالشجاعة الكافية للاعتراف ببطلان تلك الآلهة, خرج إلى الإلحاد وإنكار جميع الأديان والآلهة.

لقد بين الله سبحانه وتعالى أن الذي يحرف الشعور الطبيعي ويحوله إلى هاجس نفسي من التيه والفوضى, وشعور بالضياع, إنما هو الشيطان, فقال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥], والشيطان هنا قد يكون من الإنس أو الجان. لقد مُثّل المنافق في القرآن بالذي لا يبحث عن حقيقة الأشياء, بل يكتفي بمحاولة تجنبها بوضع أصابعه في أذنيه, فقال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

فمن عرف الله وخافه أمن من كل ما سواه, وهو ليس كالخوف من المفترس, إنما هو الكف عن المعصية, واختيار الطاعة, فالتخويف من الله هو بمعرفة قدره والحثّ على الالتجاء إلى

حرزه[٢٨], وأكثر ما يتحقق ذلك للعلماء, فقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

رابعاً: الضَعف:

الضعف صفة خَلقية ويعدّ ميزة في هذا المجال, مع معاملة الباري عز وجل لهذا الضعف بالعقل, قال تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨], فالإنسان بدنياً وفسيولوجياً يعدّ أضعف من نواح كثيرة, من كثير من الحيوانات, كما أن قدراته العقلية محدودة أيضاً.

إن النفس الإنسانية في أوقاتها الحرجة تدرك حقيقة ضعفها, فتعود مرغمة إلى فطرتها وتَصدُق اللجوء إلى خالقها, وهذا مشاهدٌ في أثناء الكوارث لا يحتاج إلى بيان, قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

لذا يتصور بعض علماء الطبيعة ومنهم أنشتاين بأن الإله هو ناتج من معرفة الإنسان بضعفه, وكتب في إحدى رسائله: (إن كلمة "الله" بالنسبة لي لا تعني شيئا أكثر من تعبير ونتاج عن الضعف البشري، والكتاب المقدس مجموعة من الأساطير, والتي لا تزال بالصورة البدائية, وتنمّ مع ذلك عن أفكار صبيانية جدًا)[٢٩], وبالطبع فإن "الكتاب المقدس" الذي يصور الإله البشري, والذي زُيّنت سقوف الكنائس بصوره, والمتحيز إلى فئة معينة من الناس, لابدّ أن يدفع الإنسان إلى هذا التفكير.

يقول صاحب الإحياء: (.. والغالب على الخلق أنه لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل, إلا عند إلمام حاجة, وإرهاق ملمة, فإن الإنسان إذا مسه الشر فذو دعاء عريض)[٣٠].

أما عندما يعود الإنسان إلى دوّامة معيشته, وكثرة انشغالاته, يعود إلى نسيان تلك الفطرة, ويتبع القطيع في الأمان المؤقت الذي يتصوره, ويعود إلى اتخاذ الأرواح أو الملائكة أو حتى

السحرة آلهة يتقوى بهم, لاعتقاده أن هؤلاء يملكون قدرات فوق قدرات البشر العاديين, فإن الذين قالوا: عزير ابن الله, أو قالوا: المسيح ابن الله, إنما قالوا ذلك لِما شهدوا عليهم من معجزات خارقة للعادة, قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴾ [مريم: ٨١].

كما أن الإنسان كثيراً ما يضعف أمام مشتهيات نفسه, فيقدِّم لها ما تريده, ويطيع هواها, لما يجد من اللذة العاجلة, قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴾ [الإنسان: ٢٧], فعدم امتلاك زمام النفس, في بعض الأوقات أو المواقف, إنما هو بسبب الضعف, وفي الحديث: ((ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب))[٣١].

فالتحكم بالرغبات النفسية ليس بالأمر السهل, بل يحتاج إلى إرادة قوية ليقوم الكائن البشري مختاراً بالجهود التي يجد نفسه مضطراً إلى القيام بها بوجه المحرضات والغرائز والمخيلة, والتي تحاول فرض وجودها عند ظهور أي محاولة من الإرادة لمسّ سلطانها[٣٢].

فالضعف النفسي قد يؤدي إلى اتخاذ هوى النفس إلها: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣], وهي عبادة منتشرة مشاهدة في عصرنا بين عُبّاد المال أو اللذة والشهوة أو السلطة والشهرة, ولا يستلزم ذلك كون الإنسان منكراً لله, فصاحب الجنتين قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴾ [الكهف: ٣٦].

خامساً: الاختيار أو الحرية:

وهي صفة خَلقية كُرّم بها الإنسان, وتَحمّل بها التكليف, والتكليف: (هو الأمر بخلاف ما في الطبيعة)[٣٣], قال تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن

زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧-١٠], لقد أعطيت النفس زمام أمرها في مجموعة صفات, فلها حرية الاختيار وما يترتب على ذلك من جزاء أو عقاب, ومناقشة هذه الصفات بإذن الله تعالى في المطلب الثاني .

المطلب الثاني: أسباب ناتجة عن الصفات الاختيارية:

إن هذه الصفات جُعلت تحت تصرف الإنسان وإرادته وتتمثل بالآتي:

اولاً: النسيان:

وسبب وضعه مع الأسباب الاختيارية: هو أنه في غالبه من كسب الإنسان, فالنسيان كان السبب الأول في معصية آدم عليه السلام, لقد شغله التفكر بالخلود والملك الدائم عن الله, رغم الحياة الرغيدة التي كان عليها بوعد من الباري عز وجل, قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥]. فنسب سبحانه وتعالى الفعل إلى آدم عليه السلام, فما هو النسيان؟

يقول ابن فارس: (النون والسين والياء أصلان صحيحان يدل الأول على إغفال الشيء والثاني على ترك الشيء)[٣٤] ويقابله الحفظ: وهو التعاهد وعدم الغفلة[٣٥].

والوسط بين النسيان الذي هو إهمال ما ينبغي أن يحفظ, وبين العناية بما لا ينبغي أن يحفظ يسمى: ذكراً [٣٦].

ولقد بينت النظريات العلمية أن ذاكرة الإنسان عادةً لا تفقد شيئاً مما علمه, وفسرت النسيان: بأنه انصرافٌ عن الشيء لعلم سابق أكثر أهمية "الكف القبلي"[٣٧] – Proactive Inhibition– فينشغل أو يغفل عمّا هو معلوم عنده بما يعترضه, أو هو فعاليات لاحقة تؤدي إلى

إغفال علم سابق" الكف البَعدي" –Retroactive Inhibition – وبهذا يغفل بما اعترضه عما وقر في علمه, فانشغال القلب بمغريات الدنيا يلهيه عن ذكر خالقه.

واستدل البعض بحديث ابن عباسﷺ, عن النبي ﷺ: ((رفع عن أُمَّتي الخطأ والنسيانُ))[٣٨], للقول بأن النسيان أمر اضطراري, ولكن الله تعالى يقول: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ ﴾ [السجدة: ١٤]. والعقوبات لا تترتب على الأمور الاضطرارية, فلو كان النسيان حكماً إلهياً لكان المحاسبة عليه ظلمًا, وهو محال, فوجب أن يكون من الناس, والنسيان بحق الله هو: الترك؛ لأنه يستحيل في حقه سبحانه الغفلة[٣٩].

لذا فإن الانشغال والغفلة عن ذكر الإله الحق, وقد قدر الأقدار وكتب الأرزاق والآجال, خطأ وسبب يؤدي إلى اتباع آلهة باطلة لا تملك من أمر نفسها شيئاً.

ثانياً: الجحود:

الجحود: (إنكار الشيء مع العلم به)[٤٠], والشاهد قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ ﴾ [النمل: ١٣-١٤]. فمع مشاهدتهم للآيات وتأكدهم من صدقها إلى درجة اليقين النفسي تعالوا على أنفسهم وأنكروها فظلموا بذلك أنفسهم.

إن الجحود من الحالات النفسية الاختيارية الخاصة بالمكلفين, قَالَتَعَالَى:﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣], فهو مغالبة النفس على إبراز الباطل وغمط الحق, وغالباً ما يكون سبباً مباشراً عند "الملأ", أو أصحاب النفوذ وعليّة القوم, الذين لديهم أتباع؛ لأن مصالح هؤلاء – فيما يعتقدون–عادة ما تتعارض مع معرفة الحقيقة ونشرها, فهي مبنية على

استعباد الضعفاء واستغلالهم, وقد يحصل الجحود من الاتباع, قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [هود: ٥٩].

فالجاحد لا يعترف بما يبلغ حواسه من آيات وإشارات ولا بما يستنتجه عقله من أحكام, قال تعالى:﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وقد يحاول التبرير وإقناع نفسه والآخرين بصحة موقفه وبشتى الحجج غير المقنعة, قال تعالى حكاية عن المشركين: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧].

فلا يتوقف العقل إلّا إذا عُدم التصور, والتصور حاصل هنا, ولكن وجد المانع منه؛ لظنٍ أو هوىً, وهو الموجود عند سائر المنازعين في القضايا الضرورية من أهل الجحود والتكذيب[٤١], ففي قصة الوليد بن المغيرة مع النبي ﷺ وقد علم صدقه واستعظم القرآن وعلم أنه ليس من كلام الجن أو الإنس وأخبر القوم بذلك, ولكنه عاد ليقول: (ولكني تفكرت في أمره كثيراً فلم أجد شيئا يليق به إلا أنه ساحر)[٤٢].

والجحود قد يكون من بعض المسلمين, الذين اتخذوا الدين مطية للوصول إلى مأربهم, ممن اغتروا بالحياة وشهواتها ومتعها, قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٥١].

فصنف الجاحدين لن تصل معه إلى نتيجة؛ لأنه عالم بصدق ما تخبره, ويعلم أنه عالم بذلك ولكنه يعاند.

ثالثاً: الكبر والعُجب:

الكبر أو الاستكبار حالة نفسية مختصة بالمكلفين: وهو إعجاب المرء بنفسه وأن يرى نفسه أعظم وأكبر من غيره فإن كان ذلك مع ربه امتنع من قبول الحق بالتوحيد والطاعة(٤٣).

وخُلق الكبر المتمكن من النفس, يحصل في قلب صاحبه اعتدادٌ وفرحٌ وركونٌ إلى ما اعتقده, ويعز في نفسه بسبب ذلك.

والأصل في الكبر ما كان في النفس, فإن ظهر على الجوارح يقال: تَكبَّر, ويتميز عن العجب, بأن الكبر يستدعي متكبراً عليه, يرى نفسه فوقه, ومتكبراً به, فمن لم يخلق إلا وحده لا يتصور أن يكون متكبراً, بل هو معجب.(٤٤)

والمستكبر بعيد عن تَدبّر آيات الله وفهمها, قال تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ [الأعراف: ١٤٦]؛ لأنه باستكباره يعطل حواسه ويصر على اعتقاده الباطل, فهو كما يقول تعالى: ﴿ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ [الجاثية: ٨].

وشر أنواع الكبر: ما يمنع من استفادة العلم, وقبول الحق والانقياد له, وبهذا يكون سبباً مباشراً للكفر, يقول ابن القيم رحمه الله: (الكفر أربعة: الكبر والحسد والغضب والشهوة, فالكبر يمنعه الانقياد, والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها, والغضب يمنعه العدل, والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة)(٤٥).

ومن أمثلة الكبر ما ورد في كتب السيرة من قصة الأخنس بن شريح مع أبي جهل, حيث سأله عمّا يقوله فيما سمعه من النبي ﷺ فقال: (تنازعنا نحن وبنوا عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان, قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى تدرك هذه؟! والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه)[٤٦].

يقول الحارث المحاسبي رحمه الله, في معرض ذكره لأنواع البشر واستفادتهم من عقولهم: (وفرقة عقلت البيان ثم جحدت كبراً وعناداً؛ لطلب الدنيا, كما وصف عن إبليس أنه تكبر وعاند كبراً, وهو مع ذلك يقول: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢])[٤٧].

أما **العجب:** فهو يدل على كبر ولكن ما كان مع النفس, وتصور الشخص استحقاق رتبة لا يكون مستحقا لها[٤٨], وقيل: (استعظام النعمة, والركون والاطمئنان إليها, مع نسيان إضافتها إلى المنعم, وعلته الجهل المحض)[٤٩], فالكبر أثر من آثار العجب.

والكبر والعجب كلاهما مانع من رؤية الحق, ولكن صاحبهما قد يرجع إلى الحق إذا فقد دواعي الكبر أو العجب فلقد كان قوم فرعون كلما أتتهم آية وعجزوا عن ردها استنجدوا بموسى, قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

وحتى فرعون نفسه عندما أدركه الغرق وأيقن الهلاك, اعترف وأعلن إيمانه ولكن بعد فوات الأوان: قَالَ تَعَالَى: ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠], وصاحب الجنتين في سورة الكهف, بعد أن فقدهما, ندم وعاد إلى رشده قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٢].

رابعاً: الغُرور:

الغرور بالضم: هي الأباطيل, أو (تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب)[٥٠], وقيل: (الإيهام فيما الأمر خلافه, والذي يحمل الانسان على فعل ما يضره, مثل أن يرى السراب فيحسبه ماء فيضيع ماءه فيهلك عطشاً, وتضييع الماء فعل أداه إليه غرور السراب إياه)[٥١].

أما الغَرور: بالفتح هو الذي سبَّبَ الغُرور من إنسان أو شيطان أو دنيا.

والغُرور نوع من الجهل, وقد يشترك به الأتباع بالغرور بأسيادهم, والمتبوعين بغرورهم بأنفسهم أو الشيطان أو الدنيا.

فمن الناس من غرته الحياة الدنيا, فاليقين لديهم هو النعيم واللذات الدنيوية الحاضرة, أما الغيبي ولذات الآخرة فهو شك, فلا يترك اليقين بالشك, فهي إذن خير ولابد من إيثارها, قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٧].

وهذا من القياس الفاسد الذي يشبه قياس إبليس حيث قال: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ [ص: ٧٦], والخطأ في هذا القياس: هو اعتباره أن النقد خير من النسيئة, على اعتبار أن الحياة هي النقد والآخرة هي النسيئة, أو أن اليقين خير من الشك فالحياة هي يقين والآخرة شك, وكلاهما فاسد, ودليل فسادهما: مثال التاجر الفطن فهو يبذل المال نقداً ليضاعفه نسيئة, والنقد يقين والربح شك, كما أنه يخاطر في الأسفار والتعب ويركب الاجواء والبحار نقداً؛ لأجل الراحة والربح نسيئة, والعاقل إذا حذره الطبيب الأطعمة التي تؤذيه, تركها في الحال, خوفاً من ألم المرض في المستقبل على ما يجد فيها من لذة ورغبة, فقد ترك المتيقن ورضي بالشك[٥٢].

قال تعالى:﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الأعراف: ٥١].

فالغرور: هو الثقة بمن لا يوثق به, والسكون إلى من لا يسكن إليه, ورجاء النفع من المحل الذي لا يأتي بخير[٥٣], فهو يدفع بصاحبه إلى البقاء على خطأ تصوراته, وإيجاد مبررات يحاول اقناع نفسه بصحتها, وصحة عقائده, وعظمة إلهه, وأحقيته بالعبادة والخضوع.

خامساً: اتباع الهوى:

الفرق بين الهوى والشهوة, أن الهوى يختص بالآراء والاعتقادات، والشهوة مختصة باللذات, فهي من نتائج الهوى وهي أخص، والهوى أصل وهو أعم. (مع اجتماعهما في العلة والمعلول، واتفاقهما في الدلالة والمدلول)[٥٤].

لقد جعل الله عز وجل العقل حاكماً على النفس, وجعله مناط التكليف, ولكن الهوى قد يغلب العقل بأحد وجهين: إما قوة سلطانه, أو بخفائه ومكره.

فإن قوي سلطان الهوى بكثرة دواعيه, ضعف العقل عن دفعه وقُهِر, حتى يستولي على النفس, مع وضوح قبح الهوى في العقل, وأكثر ما يكون في الشباب, لضعف العقل وقوة الشهوة لديهم.

أو أن يتسلل الهوى بخفاء ومكر, فيموّه على العقل, ويصور له القبيح حسنا والضرر نفعاً, إما لميل النفس إلى ذلك الشيء, فيخفي عنها القبح وتتصوره حسنا, أو لاستصعاب التمييز على العقل وطلب الراحة واستسهالها فيظن أن ذلك أوفق الأمرين، ويغتر بأن الأسهل محمود والأعسر مذموم.

لقد اختلفت الأهواء بحسب العصور والبيئات والأمم, ولكنها دائماً كانت لفريق من الناس، يحكمون به سائر البشر, ومصالح محددة لأفراد أو جماعات، يسخّر بقية الخلق من أجلها على

حسب أهوائهم(٥٥). قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ ﴾ [القصص: ٤٩-٥٠].

فإذا كان الحق مانعاً لتلك الفئة في طموحاتها لسيادة الناس والاستعلاء عليهم, دفعوه ما استطاعوا بالشبهات من علماء السلطة أو الكهان حتى تتفق الشبهة والشهوة, ويثور الهوى لينطمس الحق على كثير من الناس, أما إن كان الحق ظاهراً لا مجال لستره بالشبهات أعرض عنه ومنّى نفسه بالتوبة(٥٦), يقول تعالى في وصف أمثال هؤلاء: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

بعد سرد الأسباب النفسية, يتبين أن فرويد لم يجانب الصواب عندما حكم على الأفكار الدينية بأنها أوهام, وتحقيق للرغبات الانسانية, وأن سر قوة هذه الأفكار كامن في قوة تلك الرغبات(٥٧), وقد شبه الله عز وجل آمال هؤلاء بالسراب فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

إن السوء الذي يصيب الإنسان, إنما هو من نفسه وبمحض إرادته, قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩], فاختيارات الإنسان لا يتحمل مسؤولية خطأها أحد سواه, ولقد اعترف آدم وزوجه بذلك, قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[الأعراف:٢٣], وهذا الاعتراف ضروري جداً, لتصحيح مسار الإنسان

في بحثه عن الحقيقة وإيجادها؛ لأن الفرصة لازالت قائمة, أما الاعتراف الأخروي فقد تجاوز زمنه ولا فائدة منه: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

لذا كانت العقوبة الأخروية من مقتضيات العدالة الدنيوية التي تتناسق مع الإدراك العقلي, قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٣٣].

المبحث الثاني

الأسباب المادية

إن رغبة الامتلاك تحتل موقعاً متميزاً في تطلعات الإنسان, فهي تأتي بالمرتبة الثانية بعد الرغبة بالخلود, كما أن نسبة استجابة الإنسان للمادي؛ كونها مدركة بالحواس, أعلى من الاستجابة العقلية؛ لاحتياج العقلي إلى فكر وتأمل؛ ولهذا تلعب الاسباب المادية دوراً مهماً في حياة كثير من الناس.

ومن الأسباب المادية الداعية إلى صناعة الآلهة واتخاذها الآتي:

المطلب الأول: السلطة والقوة:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١].

إن الأصل في السلطة أنها ضرورة من ضرورات الاجتماع, فالتجمعات البشرية تحتاجها؛ لتنظيم شؤونها وتوجيهها, وإقامة العدل بين أفرادها[٥٨], إلا أن الملاحظ على التجمعات البشرية

أنها تصغي دائماً إلى أقوال ذوي الإرادة القوية الذين يعرفون كيفية التسلط على الناس, وشدة إقدامهم إلى مقاصدهم, مع أنهم غالبا ليسوا من أهل الرأي والحصافة[٥٩].

أما من حيث المعتقدات فيفترض أن تكون للأديان سلطة ذاتية داخلية على معتنقيها, بدافع من الرغبة والرهبة؛ لذا لم يكن الإكراه وسيلة فعالة لتغيير عقائد الناس.

لقد اعتبرت أقوام سالفة أن ما تتمتع به من قوة وسطوة, إنما هو دليل على صدق اعتقادها, فأنكرت النبوة وجحدت الآيات الإلهية. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥].

إنَّ استبداد السلطة السياسية والدينية هما صنوان قويّان, والحاجة قائمة بينهما لتذليل الإنسان, فإن كان حكم السياسة سارياً على الأبدان, فالدين حاكم على القلوب, والمتتبع لتاريخ الأمم السابقة يجد أن التَّعاليم الدّينية، تدعو البشر إلى خشية قوّة عظيمة لا تُدرك بالعقول، وتتهدَّد الإنسان بكلّ المصائب في الحياة الدنيا، فتذهل منها العقول, ثم يرسم لهم طريق النجاة وعلى أبوابه الكهنة والقسس, يحكمون على الناس بالتذلل لهم, ليقبلوا النذور والقرابين لإرشادهم إلى الخلاص والتواصل مع الأرواح التي لها حظوة عند الإله, أو حتى سلطة عليه[٦٠].

إن الأديان التي اشتملت على الكهنوت, ووجود وكلاء عن الآلهة, أنيط بهم تنفيذ الأحكام, والتوسط بينها وبين الناس من خلال أفراد "مقدسين" أعطت للسلطة الكهنوتية سطوة وهيمنة على محاور الحياة على مر العصور والازمان.

ففي مصر القديمة كانت سلطة الكهنة, في أحيان كثيرة, تعلو سلطان الفرعون نفسه, ففي زمن رمسيس كانت المعابد تستحوذ على إيرادات كثير من المدن, وتملك عشرات الآلاف من العبيد, وسُبع أراضي مصر ومئات الآلاف من رؤوس الماشية.(٦١)

وفي العصور الوسطى كانت أوربا تدار من قبل الباباوات والكهنة, كتنصيب الملوك وعزلهم – كما حصل لملك فرنسا فيليب مع البابا أوربان–, وإصدار الأوامر لغزو من يشاء, وقسمة الأملاك كيف شاء, وجميع الفظائع التي حصلت بيد الاسبان والبرتغاليين في الأمريكيتين كانت باسم البابا.(٦٢)

لقد ابتدعت السلطة العلمانية عن طريق منظرين, أمثال سان سيمون(٦٣), وأوغست كونت(٦٤), ديانة جديدة, بإعطاء أساس فكري لسلطة " السيادة الصناعية", عندما جعلت من العقل وقوة التقدم التقني معتقداً متحجراً, وألبست الآراء العلمية حلة من القدسية من خلال المقررات المدرسية, فالديانة الوضعية(٦٥) اعتمدت النظريات العلمية واعتبرتها الحقيقة المطلقة الوحيدة, ولتوفر للغرب الضمانة بأنه العرق الأرفع.(٦٦)

ويفضح نيتشه(٦٧) ادعاء فلاسفة الغرب في أنهم باحثون عن الحقيقة, ويرى أن القوة هي الإرادة الحقيقية للفلسفة الغربية, وليست إرادة الحق, فالقوة هي المبدأ الحاكم للفكر في الغرب, فالمستبد الديني هو أعظم الناس, والجميع ينحني أمام القديس إجلالاً, فهم يظنون فيه القوة المتفوقة وشدة الإرادة.(٦٨)

بل وصل الاستبداد بالقوة الكنسية في أحدى مراحلها, بإيهام الناس بالسلطة حتى على الآخرة, من خلال صكوك الغفران, وبذلك أعلنت نفسها كإله مطلق.

إن نشوة السلطة والقوة تُخرج الإنسان من طوره, وتجعله يتخيل امتلاك أقدار من حوله, فهو "المحي المميت", فيخضع له من حوله طمعاً بما في يديه أو خوفاً من شدته, وكلما ازداد استخفافه بالناس زادوا له تبجيلًا وهيبة, يقول تعالى عن فرعون: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤], حتى أنك ترى أمة مثل اليابان أو الصين وإلى فترة قريبة كانت تعبد الإمبراطور.

كما ارتكزت الشيوعية على نظام يفترض في قادته امتلاك المعرفة المطلقة, والقدرة على فعل كل شيء؛ لتشكل سلطة مطلقة وتفرض نفسها كإله[٦٩].

وينقل التاريخ أن الإمبراطور الروماني "كاليغورلا"[٧٠] الذي أعلن أنه إله, كان يختبئ أسفل سريره عند سماع هزيم الرعد, ويفر مذعورًا إذا شاهد البركان[٧١].

المطلب الثاني: المال:

ويعد هذا السبب متصلاً بما سبقه إذ يشكل المال ركناً من أركان السلطة والقوة, كما تعد القوة وسيلة لجمع المال والمحافظة عليه, والمال مرغوب فيه, وعزيز على النفس الإنسانية, قال تعالى: ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ [النساء: ١٢٨], فالنفوس مطبوعة على البخل, وملازمة لها[٧٢].

وقال عن الانسان: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨] قال الزجاج: (أي: وإنه من أَجْل حُبِّ المال لبخيل)[٧٣], ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ٢١].

إن التطرف سواء في الأفكار, أو التطبيق يؤدي إلى نتائج عكسية , لقد كانت الأندلس ولمدة قرون تعيش في توافق نوعي بين مكوناتها, حتى خرجت من أيدي المسلمين في حملة

صليبية, إلى حكم المؤسسة الكنسية المتمثلة بفردناند وإزابيلا, ومحاكم التفتيش التي أدت إلى قتل وحرق وتعذيب مئات الآلاف بصورة لم يشهدها التاريخ.

لقد أدت تلك الأساليب المتبعة للتغيير القسري لمعتقدات الناس, إلى ابتعاد الناس عن حقيقة الأديان, وتشكيل حركة يهودية سرية تعمل على نشأة أولى الحركات العلمانية والإلحاد الصريح في أوربا, فاليهود الذين لجأوا إلى البرتغال في البداية, ثم إلى هولاندا فيما بعد, والتي أعطتهم الجنسية الهولندية وبعض الحرية, ابتدعوا يهودية جديدة, وشكل هؤلاء وذرياتهم النواة الأولى للعلمانية الأوربية المعاصرة والإلحاد(٧٤).

لقد وجد هؤلاء المنبوذون كونهم أقلية, أن الوسيلة الأمثل لحكم مضطهديهم هو المال, فاشتهر سعيهم إلى امتلاكه, بشتى الوسائل المشروعة وغير المشروعة, كما في قصة المرابي اليهودي في قصة "تاجر البندقية" لشكسبير.

تعد قيمة النجاح لدى الإنسان المعاصر قيمة عليا, بدل الحق والعدل والرحمة, مع اعترافه بأنها قيم مثالية إلا أنها بزعمه لا تحقق نفعاً له فلا يسعى إليها, وربما اعتقد أنه يحب إلهاً رحيماً, ولكن في الحقيقة قد يعبد صنماً هو تجسيد لأهدافه الحقيقية, المتأصلة في توجيه السوق, والتي يعتبرها مقياساً للنجاح, وربما بحث البعض عن حمى الكنيسة والدين؛ لأن فراغه الباطني يبحث عن ملاذ, فاعتناق الدين لا يعني ضرورة التدين(٧٥).

إن الأساس الذي قامت عليه المدنية الغربية, والمدنية الأمريكية بشكل خاص, هو الاقتصاد القائم على الاستهلاك, والقدرة على إدامة وزيادة الرغبة في الحصول على المزيد من المنتجات؛ فللإبقاء على دوران عجلة الإنتاج, يجب تحويل الإنسان إلى كائن يحب أن يستهلك السلع التي تنتجها المصانع بلا انقطاع, لكي تظل الآلات –التي جعل لها عبداً– دائرة بلا

توقف[٧٦], وإدخال كل ما يمكن بيعه لهذه السوق العالمية, حتى غزت المصطلحات التسويقية الجوانب العاطفية أو الروحية, كمصطلح "الإفلاس الأخلاقي" أو "الفقر العاطفي", وتحولت المؤسسة الإعلامية إلى أداة ووسيلة ضغط, ولم يقتصر الإسراف على الأغنياء بل حتى الفقراء فقدوا التمييز في هذه الدوامة فكانوا من الغارقين[٧٧].

لقد وصل العالم إلى درجة أصبح فيه بعض البشر سلعة تباع وتشترى, فعادت العبودية بصورة معاصرة, متمثلة بالعمل القسري أو الاستغلال الجنسي للحلقات الأضعف في هذه المنظومة, والتي تتمثل بالمهاجرين بسبب الحروب أو الفقر المدقع, فقد سجلت تقارير منظمة العمل الدولية في سنة ٢٠١٧م, أكثر من واحد وعشرين مليون شخص يخضعون للاستغلال, منهم أكثر من أحد عشر مليون امرأة[٧٨].

ومن ناحية أخرى فإن الكثير من الرموز الدينية, يمثل واجهات خادعة لسلب أموال الناس, قال تعالى: ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

فالكثير من الكهنة في أمريكا يجمعون أموالاً طائلة تصل إلى عشرات, بل إلى مئات الملايين من الدولارات لمصالحهم الشخصية, ومن أمثلة ذلك:

١- أخبر كاهن أتباعه بأنه بحاجة إلى ثمانية ملايين وإلا فإن الله سوف يستدعيه إليه, فأرسل إليه أتباعه المبلغ المطلوب.

٢- وبنى آخر محطة تلفزيونية من إسهامات أتباعه, تجمع سنويا سبعاً وتسعين مليون دولاراً معفاة من الضرائب[٧٩].

٣- أما الهبات التي جمعت في أمريكا لأسباب دينية فقط في عام ٢٠٠٩م بلغت (٤١٠) مليار دولار[٨٠].

إذاً المال قد يدفع الكثيرين إلى تغيير أفكارهم ومعتقداتهم, ويغري في تقليد الأغنياء, أو تصور أن لهم ميزة خفية, لقد نظر قوم موسى إلى قارون وقد خرج إليهم بغروره فاغتر به الناس, قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: ٧٩],

فالمال والقوة والسلطة تتفاعل مع الصفات النفسية: من كبر وعجب, فتولد الغرور والركون إلى عوارض زائلة, يظنها صاحبها شيئاً باقياً, حتى يدرك حقيقتها بعد فوات الأوان, يقول تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ ﴾ [النور: ٣٩].

وأختم بدليل أورده المؤرخون الأوربيون عن مدى الاستفادة المادية من " الدين", فالكنيسة كانت تملك نصف ثروة ألمانيا, وأكثر من نصف ثروة فرنسا' أما في إيطاليا فإن ثلث شبه الجزيرة كان ملكا للكنيسة البابوية, فضلاً عما كان لها من الأملاك القيمة[٨١].

المطلب الثالث: اللذة:

إن الإنسان هو المخلوق الوحيد الباحث عن السعادة, ولكن قد يحصل تداخل بين مفهوم السعادة, ومفهوم اللذة؛ وعليه وجب التعريف بهما لإدراك حقيقتهما, وأوجه الاختلاف بينهما, فاللذة: إدراك الملائم من حيث أنه ملائم لا من حيث أنه نافع, فالدواء نافع إلا أنه غير لذيذ, فاللذة لا تكون إلا مشتهاة[٨٢], كما أنها, في الغالب, ذات طابع حسي مادي, أي: متعلقة بالحواس وتنقطع بانقطاع أسبابها, لذا جاء ذكرها في القرآن مع خمر الجنة قال تعال: ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [محمد: ١٥], وقال جل شأنه: ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [الصافات: ٤٦].

أما السعادة فعرفها صاحب الكليات بأنها: (معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير)[٨٣], وهي حال ناشئة من الشعور بالرضا والفرح والارتياح[٨٤], فمنبعها داخلي, قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [هود: ١٠٨], وقد يشعر بها المرء بكل أحواله وإن كان يحس بالألم, وضدها الشقاء ووصف بها أهل النار, قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود: ١٠٦]. ولا يميز البعض بين اللذة والسعادة, بل يعد أن الاستمتاع واللذة هي السعادة, مع وضع عامل " الرضا الشامل" عاملاً عاماً للسعادة.[٨٥]

لقد اعتمدت الفلسفة الابيقورية[٨٦]على المادة والعقل كوسيلة للحصول على السكينة وراحة البال, وعدم إشغال الفكر بالغيبيات, التي تسبب الحيرة في نظرهم, فهم يرفضون أي نوع من العناية الإلهية أو القدر؛ لأن ذلك يمكن أن يقطع سكينة عقولهم, فطريق المعرفة هو الحس فقط, وهو يتميز بالعصمة, فاللذة هي التحرر من كل أنواع الآلام أو الخوف, وأسوأ أنواع المخاوف, هي الخوف من الآلهة, أو الموت وما بعد الموت.[٨٧]

ومنذ بدايات القرن التاسع عشر, قام فلاسفة غربيون أمثال جيرمي بنثام[٨٨], وجون استيورت ميل[٨٩], وجون لوك[٩٠], بإبراز مذهب اللذة في جانبها الحسي, وحصرها بالمنفعة المادية.

ومن المعروف: أن كل سعادة أو لذة في هذه الدنيا, لها ثمن, إلا أن الإنسان لا يعرف حدوداً للَّذة يقف عندها, وأقوى مثال على ذلك هم المدمنون على مشتهياتهم.[٩١]

إن مذهب اللذة الفلسفي مذهب غير أخلاقي, فبحسب هذا المذهب فإن الخيِّر الوحيد في هذا الوجود هو اللذة، وهي إما أن تكون جسمية وإما عقلية، وإذا كانت آلام العقل أقسى من آلام

البدن، فإن الإنسان يجب أن يحيا حياة فاضلة حتى يستشعر اللذة، لأن رجحان كفة اللذة التي هي مبعث السعادة، يعني صيرورة حياة الإنسان مصدراً للمزيد من اللذة.

المبحث الثالث

الأسباب الاجتماعية

إن دراسة الحقائق الاجتماعية ليست بالأمر اليسير؛ ذلك لأنها مستترة, وملاحظتها بصورة مباشرة ليس بالأمر السهل, فلا بد من طرق غير مباشرة لكشفها: كطرق تحليل آثار تلك الحقائق, أو دراسة الوسائل, كالقوانين والنصوص الدينية, والتزام الموضوعية, والتجرد من التحيز والأفكار المسبقة.[٩٢]

غير أن عمليات التغيير في المجتمعات الحديثة, هي من السرعة والكثافة, بحيث تسفر عن صعوبات اجتماعية رئيسية, ويمكن أن تتسبب آثارها في اضطراب أساليب الحياة التقليدية, وفي القيم والمعتقدات الدينية, وأنماط الحياة اليومية, دون أن تطرح بدلاً منها قيماً جديدة واضحة.

إن الأخلاق التقليدية والتي كانت تقدم المعايير, مستندة إلى الدين, بدأت بالتفكك بسبب التنمية الاجتماعية الحديثة, مما دفع بأعداد كبيرة من الأفراد في تلك المجتمعات إلى الشعور بأن الحياة لا معنى لها ولا دلالة[٩٣].

ومن الاسباب الاجتماعية المؤدية إلى اتخاذ الآلهة:

المطلب الأول: الألفة والعادة:

يعد المحيط الاجتماعي من أول المصادر المعرفية الحسية للفرد, بدءاً بالأسرة, ثم الأقارب والأصدقاء ثم الأبعد, فالأشياء التي تفتق الفكر على وجودها واستمرارها, تألفها النفس حتى تصبح ثوابت لديها, وأكثر ما يلاحظ ذلك في المجتمعات المعزولة, أو المجتمعات الموجهة ثقافياً, بحيث

يكون من الصعوبة كسر الطوق الإعلامي والحكم على الأمور بموضوعية وحيادية, فلا يبقى طريق لتغيير الأنماط الفكرية إلا العقل, وهو عادة ما يكون مغيباً في هكذا مجتمعات.

فصاحب الألفة جارٍ على ما ألفته نفسه, مما كان عليه آباؤه وسلفه, إلهه ما اعتاده في محيطه وقومه, ودينه دين العادة والمنشأ, فإن كان في محيط الحق أصابه[٩٤], وإن من غير قصد, وإلا فهو كما قال تعالى عن أقوام قد ضلت: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات: ٦٩ – ٧٠].

فهؤلاء يصعب عليهم إدراك الحق؛ لتقليدهم آباءهم وكبراءهم دون التحقق من تلك الآراء, ولإعجابهم برأيهم, وقد تجد الواحد منهم له من قوة العقل, ما يحسن به تدبير أمر دنياه, ولو أنه استطاع التفلت من ربقة تقليده لمن سبقه من الكبراء, والإعجاب برأيهم, ثم تدبر, لأمكنه النجاة بنفسه وربما إنقاذ غيره[٩٥], وهؤلاء الذين شبههم الله تعالى بالأنعام فقال: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤], فاتّباع المجموع, طبع غرائزي لدى الحيوانات التي تعيش بنظام القطيع.

ودليل الغرائزية الحيوانية في التقليد, ما يشاهد من فضائع بعض العبادات في تقديم القرابين البشرية وغيرها للآلهة, كما في البوذية أو الوثنيات المنتشرة وحتى اليهودية, وحتى في القربان المقدس لدى النصارى, فالاعتقاد أن الطعام والشراب قد تحولا حقيقة إلى دم ولحم المسيح, ومن شك في ذلك فقد كفر, كما أن حرق المخالفين في ساحات المدن الأوربية كان يعد تقربا للإله.

كما يلاحظ في الغرب, معاداة كل من يعارض النظريات التي تربى عليها الغرب, كالداروينية أو قصص العهد القديم في التاريخ اليهودي, فالعلماء الذين بحثوا في هذه المجالات, وأوصلتهم أبحاثهم إلى نتائج مخالفة, تم اقصائهم وابعدوا من مناصبهم, وهذا ما حصل مع " توماس ل. تومسون" عالم الآثار في جامعة (ماركويت) في ميلووكي, الذي حرم من الحصول على درجة الدكتوراه في أوربا, وحرم من التدريس لعشر سنوات, لأنه توصل من خلال أبحاثه في تاريخ "الشرق الأوسط" إلى زيف الادعاءات التاريخية لليهودية المستندة إلى التوراة(٩٦).

إن كثيراً من عوام الناس ينظر إلى أن هذه النظريات اكتسبت حكماً ثابتاً؛ لأنهم يعتقدون أن العلماء المعروفين يصدقونها؛ ولكثرة عرضها وتكرارها عبر وسائل الإعلام في الأفلام العلمية الوثائقية, ومع استمرار طرق الأسماع لعبارات يقينية, يمررها صانعوا هذه الأفلام, مثل قولهم: (منذ ملايين السنيين تطور هذا الحيوان), فإن تلك الوسائل تقوم بصياغة رأي عام مؤيد للنظرية, يسير الناس وراءه بلا تفكير, مع أن الراوي لا يفصح عن كيفية التوصل إلى هذا الاستنتاج بل يلقي هذا التصريح على عواهنه ويمضي في فلمه.(٩٧)

إن العمل النمطي أو النسقي "system" المعمول به في مؤسسات الدول المتقدمة الذي أصبح منهج حياة, يقضي بالعمل وفق سياقات محددة مثل الآلات "الروبوتات" بدون أن يكون لك رأي فيما تفعل هو ضروري في الجانب العملي, لكنه يؤدي إلى نتائج كارثية في الجانب العقدي, قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ ﴾ [سبأ: ٤٦].فكل فرد في الإنسانية يخوض هذا الاختبار بنفسه فقط, وسيحاسب على قراراته منفرداً, قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٥].

لذا فإن الاتّباع الأعمى, بلا حجة أو دليل, عاقبته وخيمة ومآله إلى الندامة, قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾ [البقرة: ١٦٧].

المطلب الثاني: الصحبة أو القرين:

تمثل الصحبة أو " الصداقة ", بحسب أبحاث غربية, السبب الثاني من أسباب الطمأنينة والاستقرار النفسي, بعد الأسرة, وتصل أهمية الصداقة إلى أقصى درجاتها في مراحل معينة من عمر الانسان, كالمراهقة أو عند التقدم بالعمر(٩٨), لذا فإن هذه المراحل, هي من أخطر المراحل العمرية, والتي يتأثر فيها المرء بالأفكار المختلفة.

لقد نقل القرآن الكريم صورتين بديعتين عن أثر الصحبة, سببت إحداهما ندماً وسقوطاً في هاوية العذاب, لصنف من الناس, الذين ألغوا عقولهم وانساقوا خلف قرنائهم وأصحابهم, في تكذيبهم لدعوة الأنبياء, فقال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴾ [الفرقان: ٢٧–٢٩], فعن ابن عباس ﷺ, والشعبي رحمه الله: أن الظالم في الآية, قصد به عقبة بن أبي معيط، وكان يوادّ النبي ﷺ, كما كان خليلاً لأمية بن خلف، فأسلم عقبة، فقال له أمية: وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً, فكفر.(٩٩)

والصورة الأخرى لحوار بين من كانا يوماً رفيقين, فبعد أن حَكَّم أحدهما عقله ولم يطع قرينه فيما يدعوه إليه من الضلال, استطاع أن ينجو بنفسه وينقذها من الردى, فقال تعالى: ﴿

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ [الصافات:٥١-٥٦].

كما نبه النبي ﷺ إلى قوة تأثير الصحبة, وخطورتها على معتقد الفرد, فيما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ: ((الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ))[١٠٠], أي: فليتأمل أحدكم بعين بصيرته إلى امرئ يريد صداقته, فمن رضي دينه وخلقه صادقه, وإلا تجنبه[١٠١]. وحث عليه الصلاة والسلام على صحبة الأتقياء والصالحين بقوله: ((لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي))[١٠٢].

المطلب الثالث: الحميّة:

الحميّة هي الأنفة والغَيرة[١٠٣].وهي ناشئة من العصبية والفخر بالجماعة, وتغييب العقل وتغليب العاطفة, التي توفر الحياة المعنوية للفرد, وتقضي بنصرة الأخ أو القريب سواء أكان ظالماً, أم مظلوماً بالمعنى الحرفي للكلمة, حتى قال شاعر الجاهلية:

وَهَلْ أنَا إلا مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ... غَوَيْتُ وَإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أرْشُدِ[١٠٤]

إن قوة نار العصبية في القلب, تغلب إدراك العقل فتجعل غشاوة على البصيرة, فلا يميز حقاً أو باطلاً, إلا ما يذكي تلك النار ويزيد اضطراب القلب ويبعده عن السكينة والطمأنينة, قال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٦].

لقد نزلت هذه الآية في سُهيل بن عمرو رضي الله عنه[١٠٥], قبل إسلامه, حين جعل في قلبه الحمية، فرفض كتابة: (بسم الله الرحمن الرحيم)، و(محمد رسول الله)، في كتاب المقاضاة الذي صالح

رسول الله ﷺ عليه المشركين, مع أنه كان من أعقل رجال قريش, إلا أن عصبيته وحميته لقومه غطت على عقله[١٠٦].

فالذي لم يُعمِل عقله فيما بلغه من الآيات والنذر وكأنه مخاطب به وحده, واكتفى بما وجد عليه آباءه وأسلافه, أُخلِد إلى عادة قرابته وأصحابه وأهل بلده, وزينت له نفسه أن هذا هو الحق وما خالفه الباطل, وصور له الضلال في صورة الهدى بتلك الحمية التي أسست على غير علم, فخذل عن الهدى, ورضي أن يكون مع قومه وعشيرته, له ما لهم وعليه ما عليهم, فلو جاءه كل هدى يخالف قومه وعشيرته لم يره إلا ضلالة.[١٠٧]

بل إن الحمية لتدفع بالمرء أحياناً إلى الشرود من الحق أنفة كما يشرد البعير, لذا كان من حكمة النبي ﷺ نهيه عمر رضي الله عنه عن قتل المنافقين وقد علمهم بقوله: ((دعه, لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه))[١٠٨]

ومن حكمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتابه إلى قائد جيشه أن لا يحد رجلًا من المسلمين حتى يطلع الدرب قافلًا, خشية أن تحمله الحمية على أن يلحق بالمشركين[١٠٩].

وإن كان الأمر في الماضي يتعلق بالروحانيات, فإن الزمن الحاضر يشهد نوعاً جديداً من العصبيات والحمية الجاهلية بين " العلماء", ومن ذلك: التعصب لنظريات أثبت العلم التجريبي فشلها, كالداروينية حتى أصبح كل من لا يؤمن بها ينعت بالجمود الفكري, بل وصل الأمر بهم إلى منع الاساتذة المختصين من مجرد الإشارة إلى ما يخالفها, وتم إيقاف أساتذة جامعيين وتحويلهم إلى وظائف إدارية, لمجرد أنهم ذكروا في محاضراتهم عدم علمية نظرية دارون.

إن كثيراً من العلماء يدعمون تلك النظريات رغم أنهم يضمرون شكوكاً كبيرة حولها؛ لأن الجهات التي بيدها المستقبل المهني لهؤلاء العلماء تتبنى النظرية, وتتوقع منهم أن يشاركوها في تبنيها ونشرها, وتحارب المعارضين لها, بل إن بعض العلماء الذين يؤمنون بالخلق, يخفون ذلك خوفاً من الضغوط التي قد تمارس عليهم لو أظهروا إيمانهم(١١٠).

ففي سنة (٢٠٠٥م) حُكم على أحد الأساتذة في (بنسلفانيا- أمريكا) بالتوقف من التدريس؛ لأنه أخبر أحد طلابه بوجود كتاب في المكتبة يتحدث عن التصميم الذكي للكون(١١١).

النتائج

بعد مناقشة الأسباب المؤدية إلى اتخاذ الآلهة أوجز أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث:

أولاً: تتفاوت الأسباب المؤدية بالإنسان إلى اتخاذ آلهة بين أسباب نفسية أو اجتماعية أو مادية.

ثانيًا: إن الأسباب النفسية الخَلقية لا يمكن التصرف بها بل هي ثوابت في التكوين البشري, وهي موجهات دافعة نحو حاجة ملحة في الإنسان متمثلة بعبوديته لموجود أسمى.

ثالثاً: إن الأسباب النفسية الاختيارية, والأسباب الاجتماعية, والمادية, هي خاضعة لميزان العقل وتتجاذبها قوتان متضادتان في التكوين البشري هما: القوة الروحية التي تريد السمو بالإنسان, وقوة الشهوة المادية التي وضعت فيه؛ لتتكامل خلقته من ناحية ولتكون معادلة للروح؛ ليتحقق عمل العقل "الميزان".

رابعًا: إن معرفة الإنسان بحقيقة نفسه هي من أهم وسائل معرفة ربه وإلهه الحق.

خامساً: إن الدراسات التخصصية في الاجتماع والنفس والمادة والدين هي أحد أهم أسباب تشتت آراء العلماء فيما يتعلق بحقيقة الإنسان, فهم كالعميان الذين يريدون أن يصفوا فيلاً كل حسب ما يدرك, بل يجب أن تكون الدراسات شاملة لجميع تلك النواحي.

سادسًا: إن التزام الموضوعية والمنهج العلمي والحقيقة المجردة كلها واجبة في مجال البحث الغيبي, فالنتائج قد يتم تزييفها لسبب أو لآخر.

هوامش البحث

(١) ينظر: أسس علم النفس العام, طلعت منصور, وآخرون, مكتبة الأنجلو- مصر, ٢٠٠٣م (ص ٥).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة, محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ) تحقيق: محمد عوض مرعب, دار إحياء التراث العربي- بيروت, ط١، ٢٠٠١م (١٣/ ٨). لمحكم والمحيط الأعظم, أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ) تحقيق: عبد الحميد هنداوي, دار الكتب العلمية-بيروت, ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م (٨/ ٥٢٥).

(٣) التعريفات, علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر, دار الكتب العلمية بيروت -لبنان, ط١, ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م (ص ٢٤٤). التوقيف على مهمات التعاريف , زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ) عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت-القاهرة, ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م. (ص ٣٢٧).

(٤) ينظر: الدين والتحليل النفسي, اريك فروم, ترجمة: فؤاد كامل, مكتبة غريب-القاهرة ١٩٧٧م(ص١٠).

(٥) سيغيموند شلومو فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) طبيب أعصاب يهودي نمساوي, يعد مؤسس علم التحليل النفسي, اشتهر بنظريات العقل اللاواعي وآلية الدفاع عن القمع, وخلق الممارسة السريرية في التحليل النفسي, كما اشتهر بتقنية إعادة تحديد الرغبة الجنسية والطاقة التحفيزية الأولية للحياة البشرية، وتفسير الأحلام كمصادر للنظرة الثاقبة عن رغبات اللاوعي, ومع التقدم في مجال علم النفس, بدأت تظهر العديد من العيوب في نظرياته. ينظر: biography.com/people/sigmund-freud-٩٣٠٢٤٠٠.

(٦) ينظر: الدين والتحليل النفسي, مصدر سابق (ص١٢).

(٧) تأثر فرويد بأفكار المشرف عليه في كلية الطب, الداروبني: كارل فريدريك كلاوس, وقد كانت الفترة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة انتشار لتلك الأفكار. ينظر: الموسوعة الحرة, صفحة Carl Friedrich Claus.

(٨) ينظر: الألم النفسي والعضوي, د. عادل صادق, دار الأهرام- مصر, ط١, ١٩٨٦م (ص ٢١٨).

(٩) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢٧). المجموع شرح المهذب (١/ ٢٨٤).

(١٠) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل, تفسير البيضاوي (٤/ ٢٠٦).

(١١) ينظر: تأويلات أهل السنة, تفسير الماتريدي (٨/ ٢٧١).

(١٢) ينظر: تفسير ابن كثير(٦/ ٣١٣).

(١٣) ينظر: علم النفس المعاصر, د. حلمي المليجي, دار النهضة لعربية- بيروت, ط٨, ٢٠٠٠م (ص ١١٥).

(١٤) اللزوم: اقتضاء شيء شيئاً آخر, وينقسم إلى ثلاثة أقسام: اللزوم الذهني والخارجي, واللزوم الذهني, واللزوم الخارجي, فاللزوم الذهني والخارجي يعرف بأنه يستلزم الشيء في الذهن والخارج, أي كلما تحقق الملزوم في الذهن والخارج تحقق اللازم, كلزوم حاجة الحادث إلى محدث, وكملازمة الزوجية للاثنين. ينظر: المنطق الواضح في شرح السلم المنورق, المعصراني (ص ٢٢).

(١٥) البهيمة الجمعاء: هِيَ السليمة, سميت بذلك لِاجْتِمَاع السَّلامَة لَهَا فِي أعضائها, والجدعاء: هي مقطوعة الأذن. ينظر: غريب الحديث, أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ) تحقيق: د. عبد الله الجبوري, مطبعة العاني – بغداد, ط١ ، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م. (١/ ٣٥١).

(١٦) أخرجه البخاري في صحيحه, من حديث أبي هريرةﷺ, كتاب: الجنائز, باب: إذا أسلم الصبي فمات, برقم (١٣٨٥).

(١٧) ينظر: تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة, القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) تحقيق: لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت, ٢٠١٢م (١/ ١٠٠).

(١٨) الأبحاث أجراها مؤخراً سبع وخمسون عالماً في أكثر من عشرين بلداً واستغرقت ثلاث سنوات, بتكلفة ثلاثة ملايين دولار شاركت فيها العديد من الجامعات, وقدمت نتائجها سنة ٢٠١١م. ينظر: موقع موسوعة الكحيل للإعجاز, نقلًا عن.ionainstitute.ie/humans-predisposed-to-believe-in-religion-study أو .ox.ac.uk/media/news_stories/٢٠١١/١١٠٥١٣.html

([١٩]) ينظر: الروح, محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) دار الكتب العلمية – بيروت, ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م(ص: ٣٦).

([٢٠]) ينظر: الدين والتحليل النفسي, مصدر سابق(ص ٧).

([٢١]) ينظر: صدام الحضارات, إعادة صنع النظام العالمي, صامويل هنتنجتون, ترجمة: طلعت الشايب, دار سطور, ط٢, ١٩٩٩م (ص٢٩٣).

([٢٢]) في منتصف القرن الثامن عشر قام كل من العالمان: " تشارلز دارون" و"ألفريد راسل والس" بصياغة قانون يقضي بوجود قوى طبيعية تؤدي إلى تطور الكائنات الحية وعرف ذلك بنظرية الانتخاب الطبيعي, وتعتمد على مفهومين أساسيين هما: الأصل المشترك للكائنات, والتناسل مع التغير. ينظر: الدليل المبسط للوراثة الحديثة, من الجين إلى الجينوم, أحمد منصور الزهيري, المكتبة الاكاديمية- القاهرة, ٢٠١٥م (ص ٥).

([٢٣]) مفاتيح الغيب, أو التفسير الكبير, أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي – بيروت, ط٣ , ١٤٢٠ هـ (٣٠/ ٦٤٤), خلافاً للزمخشري في الكشاف(٤/ ٦١٢), الذي اعتبره من اختيار الانسان وحكم أنه نقص, فنزه الله تعالى عن خلق الهلع, وفق مذهب المعتزلة.

([٢٤]) الدافعية: مجموعة القوى التي تحرك السلوك وتوجهه نحو الأهداف. ينظر: أسس علم النفس العام, مصدر سابق (ص١١٠).

([٢٥]) مفاتيح الغيب مصدر سابق (٣٠/ ٦٤٤).

([٢٦]) ينظر: أسس علم النفس العام, مصدر سابق (ص ١٢٥).

([٢٧]) من قصة "ملابس الملك الجديدة" للأديب الدنماركي هانس كريستيان أندرسن (١٨٠٥ -١٨٧٥).

([٢٨]) ينظر:المفردات في غريب القرآن, أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ) تحقيق: صفوان عدنان الداودي, دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت, ط١, ١٤١٢ هـ (ص ١٦٢).

([٢٩]) من رسالة لأنشتاين كتبها باللغة الألمانية في عام ١٩٥٤ إلى الفيلسوف إريك غوتكيند. عرضت الرسالة في مزاد في لندن في ١٢ ايار٢٠٠٨م, ينظر: موقع شبكة CBC الاخبارية. cbc.ca/news/world/belief-in-god-a-product-of-human-weaknesses-einstein-letter

([٣٠]) إحياء علوم الدين, أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ) دار المعرفة – بيروت (١/ ٣٢٩).

([٣١]) صحيح البخاري, كتاب الأدب, باب الحذر من الغضب, برقم (٦١١٤). و صحيح مسلم, برقم (٢٦٠٩).

([٣٢]) ينظر: دائرة المعارف السيكولوجية (٢/ ٣٧٠).

([٣٣]) مفاتيح الغيب, مصدر سابق (٢٥/ ١٨٧).

([٣٤]) مقاييس اللغة, أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(ت: ٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون, دار الفكر- بيروت, ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. (٥/ ٤٢١).

([٣٥]) ينظر: العين, أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ) تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي, دار ومكتبة الهلال للفراهيدي. (٣/ ١٩٨).

([٣٦]) ينظر: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق, أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه(ت: ٤٢١هـ) تحقيق وشرح: ابن الخطيب, مكتبة الثقافة الدينية, ط١, دت (ص ٣٥). والذريعة الى مكارم الشريعة, أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ) تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي, دار السلام – القاهرة, ط: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م. (ص ١٥٠).

([٣٧]) بحسب نظرية التداخل أو التزاحم –Interference Theory– أن كثرة تداخل المعلومات ومهام التعلم تؤدي إلى تشتت المعلومات المخزونة في الذاكرة وتؤدي إلى نسيان المعلومات الأقل تكراراً وهو إما أن يكون بالكف القبلي, أو الكف البعدي. ينظر: علم النفس المعرفي النظرية والتطبيق, عدنان يوسف العتوم, دار المسيرة للنشر والتوزيع- الأردن, ط٣ , ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م(ص ١٥١).

([٣٨]) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجه برقم(٢٠٤٥). وصححه الحاكم في المستدرك (١٩٨/٢). وأقره الذهبي، وابن حبان (١٧٤/٩).

([٣٩]) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن, محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري(ت: ٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر, مؤسسة الرسالة, ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م. (٢٠/ ١٧٧). مفاتيح الغيب, مصدر سابق (٢٥/ ١٤٦).

([٤٠]) الفروق اللغوية, أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ) تحقيق: محمد إبراهيم سليم, دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع- القاهرة. (ص ١٥٧).

([٤١]) ينظر: درء تعارض العقل والنقل, تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن محمد, ابن تيمة(ت:٧٢٨هـ) تحقيق: د.محمد رشاد سالم, جامعة الإمام محمد بن سعود- السعودية, ط٢, ١٤١١هـ-١٩٩١م. (٦/ ٢٨٥).

([٤٢]) ينظر: مفاتيح الغيب, مصدر سابق (٣٠/ ٧٠٧),

([٤٣]) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري, أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي(ت: ٨٥٢هـ) رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي, قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ. (١٠/ ٤٨٩).

([٤٤]) ينظر: إحياء علوم الدين, مصدر سابق (٣/ ٣٤٤).

([٤٥]) الفوائد, محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) دار الكتب العلمية – بيروت، ط٢, ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م. (ص ١٥٧).

([٤٦]) السير والمغازي "سيرة ابن إسحاق", محمد بن اسحاق بن يسار المطلبي بالولاء, المدني(ت: ١٥١هـ) تحقيق: سهيل زكار, دار الفكر–بيروت, ط١, ١٣٩٨هـ–١٩٧٨م. (ص ١٩٠).

([٤٧]) ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله (ت: ٢٤٣هـ) تحقق: حسين القوتلي, دار الكندي , دار الفكر – بيروت, ط٢، ١٣٩٨هـ. (ص ٢١٥).

([٤٨]) ينظر: التعريفات, مصدر سابق (ص ١٤٧).و دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون, القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (ت: ق ١٢هـ) عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص, دار الكتب العلمية – بيروت, ط١، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م. (٢/ ٢١٧).

([٤٩]) ينظر: إحياء علوم الدين, مصدر سابق (٣/ ٣٧١).

([٥٠]) ينظر: الكليات, أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ) تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري, مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م. (ص ٦٧٢).

([٥١]) ينظر: معجم الفروق اللغوية, مصدر سابق (ص ٣٨٤).

([٥٢]) ينظر: إحياء علوم الدين, مصدر سابق (٣/ ٣٨٠).

([٥٣]) ينظر:الروح, في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة, محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) دار الكتب العلمية – بيروت, ١٣٩٥هـ–١٩٧٥م. (ص ٢٤٤).

([٥٤]) ينظر: أدب الدنيا والدين, أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت: ٤٥٠هـ) دار مكتبة الحياة, دط , ١٩٨٦م. (ص ٣٣).

([٥٥]) ينظر: جاهلية القرن العشرين, محمد قطب, دار الشروق, ط١٢, ١٤١٢هـ–١٩٩٢م (ص ٤٦).

([٥٦]) ينظر: الفوائد, مصدر سابق (ص ١٠٠).

([٥٧]) ينظر: المقدس والمجتمع, نور الدين الزاهي, دار أفريقيا الشرق– المغرب, ٢٠١١م (ص ٢٣).

([٥٨]) ينظر: المقدمة, ابن خلدون(١/ ٦).

([٥٩]) ينظر: روح الاجتماع, جوستاف لوبون, ترجمة: أحمد فتحي زغلول باشا, مطبعة الشعب– مصر, ١٣٢٧هـ– ١٩٠٩م (ص ١٤٩).

([٦٠]) ينظر: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد, عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكَوَاكِبِي يلقب بالسيد الفراتي (ت: ١٣٢٠هـ) المطبعة العصرية – حلب (ص ٢٧).

([٦١]) ينظر: قصة الحضارة, ويليام جيمس ديورَانت(ت: ١٩٨١م), ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين, دار الجيل– بيروت، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم– تونس, ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م (٢/ ١٨٢).

([٦٢]) ينظر: "حقول الدم" الدين وتاريخ العنف, كارين ارمسترونج, ترجمة: اسامة غاوجي, الشبكة العربية للابحاث والنشر–بيروت, ط١, ٢٠١٦م. (ص ٣١٩).

([٦٣]) سان سيمون (١٧٦٠م– ١٨٢٥م): فيلسوف فرنسي ولد في باريس من أسرة أرستقراطية عريقة, مؤسس مذهب في الاقتصاد والسياسة عرف باسمه , آمن بأن رسالته هي اخراج السلطات السياسية من أيدي رجال الدين والنبلاء ورجال القضاء والقانون لإيداعها في أيدي رجال الصناعة, وليس عن طريق العنف بل الملكية. ينظر: موسوعة الفلسفة, د.عبد الرحمن بدوي, المؤسسة العربية للدراسات والنشر–بيروت,ط١, ١٩٨٤م (ص ٥٦٩).

([٦٤]) اوغست كونت(١٧٩٨–١٨٥٧): فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي تتلمذ على سان سايمون, ويعد مؤسس الفلسفة الوضعية, التي ترى ان لا سبيل إلى المعرفة إلا بالملاحظة والتجربة الحسية, ويعتقد بان العالم سيصل إلى مرحلة من الفكر والثقافة حيث ينفي كل القضايا الدينية والفلسفية, وسوف تبقى القضايا العلمية التي أثبتت بالحس, وحينها سوف يمحى الدين من المجتمعات البشرية. ينظر: موسوعة الفلسفة, مصدر سابق (٢/ ٣١١–٣١٥).

([٦٥]) الوضعية: مذهب فلسفي ملحد واضعه "أوغست كونت", ويعتبر المعرفة العلمية هي المعرفة الحقيقية, وهي الناتجة عن منهج علمي صارم لتأكيد النظريات العلمية, ولا يعترف بمعرفة ما وراء الطبيعة أي أن اليقين ما كان ظاهراً أو قابلاً للتجربة, فمهمة العلم: الوصف وليس التفسير. ينظر: المعجم الفلسفي, د. مصطفى حسيبة, دار أسامة للنشر والتوزيع – الأردن, ط١, ٢٠٠٩م (ص٦٩٢–٦٩٣).

([٦٦]) ينظر: الأصوليات المعاصرة أسبابها ومظاهرها, روجيه غارودي, ترجمة: د. خليل أحمد خليل, دار عام ألفين–باريس, ط ٢٠٠٠م. (ص١٧–١٩).

([٦٧]) فريدريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠): فيلسوف ألماني, وأحد أعظم الشخصيات المصيرية في التاريخ الروحي للغرب, انتقد الفلسفة والدين والعقل, واعتبرها اصناماً اخترعها الانسان, ووضع نظرية القوة واعتبرها محور القيم في الحياة" فالخير هو القوة والشر كل ما يصدر عن الضعف, فيجب أن يفنى الضعفاء العجزة. ينظر: موسوعة الفلسفة, مصدر سابق (٢/ ٥٠٨-٥١٦).

([٦٨]) ينظر: ما وراء الخير والشر تباشير فلسفة للمستقبل, فريدريك نيتشه, ترجمة: جيزيلا فالور حجار, دار الفارابي-بيروت, ط١, ٢٠٠٣م (ص ٨٥).

([٦٩]) ينظر: ثقافة أوربا وبربريتها, أدغار موران, ترجمة: محمد الهلالي, دار توبقال-المغرب,ط١, ٢٠٠٧م(ص٤٤).

([٧٠]) كاليغورلا: واسمه "جايوس" (١٢م -٤١م)، ثالث إمبراطور روماني، حكم بين ٣٧ - ٤١م, من أشهر الطغاة في التاريخ, المعروف بوحشيته وجنونه, قتله أحد حراسه سراً, والذي كان معرضا لإهاناته المستمرة, ولشدة بطشه كَذّب كثير من الشعب خبر مقتله خشية تربصه بهم لقتلهم. ينظر: قصة الحضارة, مصدر سابق (١٠/ ١٠٧).

([٧١]) ينظر: المصدر نفسه (١٠/ ١٠٨).

([٧٢]) ينظر: مفاتيح الغيب, مصدر سابق (١١/ ٢٣٧).

([٧٣]) معاني القرآن وإعرابه, إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج(ت: ٣١١هـ) عالم الكتب – بيروت, ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م (٥/ ٣٥٤).

([٧٤]) لقد أدت سياسة الحرمان التي مورست في اليهودية بشكل خاص, إلى رفض الإيمان بالروحانيات, واقتصروا على ما يمكن إثباته بالأدلة العقلية, ومن أمثال هؤلاء الرافضين "أوريل دا كوستا" و"خوان دا برادو" و" باروخ اسبينوزا". ينظر: معارك في سبيل الله, الأصولية في اليهودية والمسيحية والاسلام, كارين ارمسترونج, ترجمة: د. فاطمة نصر و د. محمد عناني, مطابع لوتس- القاهرة, ط١, ٢٠٠٠م. (ص٤٠-٥٠).

([٧٥]) ينظر: الدين والتحليل النفسي, مصدر سابق (ص ٩٤).

([٧٦]) ينظر: الإنسان ذلك المجهول, ألكسيس كاريل, ترجمة: شفيق اسعد فريد, مؤسسة المعارف – بيروت, ط٣, ١٩٨٠م. (ص١٧).

([٧٧]) ينظر: "ثقافة الاستهلاك" الاستعلاك والثقافة والسعي وراء السعادة, روجر روزنبلات, ترجمة: ليلى عبد الرازق, المركز القومي للترجمة-مصر, ط١, ٢٠١١م (ص ٨-١٢).

([٧٨]) ينظر: مركز أنباء الأمم المتحدة الموقع الرسمي.www.un.org/arabic/news/story

([٧٩]) للمزيد ينظر: يد الله, لماذا تضحي الولايات المتحدة بمصالحها من اجل إسرائيل؟, غريس هالسل, ترجمة محمد السماك, دار الشروق–مصر, دت(ص ١٦).

([٨٠]) ينظر: مجلة انترناشينال بولتن "التنصيرية" الفصلية, عدد (٣٣), كانون الثاني ٢٠٠٩م, (ص ٣٢).

([٨١]) ينظر: قصة الحضارة, مصدر سابق (٢٢/ ٣٩).

([٨٢]) ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف, مصدر سابق (ص: ٢٨٨). والمعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) دار الدعوة. (٢/ ٨٢٢).

([٨٣]) الكليات, مصدر سابق (ص ٥٠٦).

([٨٤]) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة, د.أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل, عالم الكتب, ط١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م. (٢/ ١٠٦٦).

([٨٥]) ينظر: سيكولوجية السعادة, مايكل أرجايل, ترجمة: د. فيصل عبد القادر يوسف, سلسلة عالم المعرفة–الكويت, ١٩٩٣م. (ص ٩–١٠).

([٨٦]) نسبة إلى أبيقور (٣٤١–٢٧٠ ق.م): فيلسوف يوناني ولد في أثينا, والفلسفة بالنسبة إليه الوصول للحياة السعيدة والمطمئنة ولها خاصيتان: الطمأنينة والتخلص من الخوف, وغياب الألم, فالسعادة والألم هما مقياس الخير والشر، وأن الموت هو نهاية الجسد والروح ولهذا لا ينبغي أن نرهبه، وأن الآلهة لا تكافئ أو تعاقب البشر، والكون لا نهائي وأبدي، وأن الآلهة هي على صورة الانسان, وهي من خلق أمانيه وآماله. ينظر: موسوعة الفلسفة, مصدر سابق (ص ٨١–٨٦).

([٨٧]) ينظر: مدخل إلى الفلسفة القديمة, أ.هـ.آرمسترونغ, ترجمة سعيد الغانمي, دار كلمة–أبو ظبي والمركز الثقافي العربي–بيروت, ط١, ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م (ص ١٧٥–١٧٧).

([٨٨]) جيرمي بنتام (١٧٤٨ – ١٨٢٣م): أول فيلسوف إنكليزي أبرز مذهب اللذة في القرن التاسع عشر الميلادي، وذلك في كتابه "مقدمة لأصول الأخلاق والتشريع".

([٨٩]) جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ – ١٨٧٣م): الفيلسوف الإنكليزي الذي نادى باللذة والمنفعة أيضاً.

([٩٠]) جون لوك (١٦٣٢ – ١٧٠٤م): فيلسوف إنكليزي, قال بأن فكرة الخير يجب أن تُعرّف بأنها هي نفسها اللذة أو على الأقل تعرف تعريفاً يردها إلى اللذة وعارض نظرية الحق الإلهي، وقال بأن الاختيار هو أساس المعرفة.

([٩١]) ينظر: الألم النفسي والعضوي, مصدر سابق (ص ٢٠١).

(٩٢) ينظر:علم الاجتماع, انتوني غدنز, ترجمة: د.فايز الصياغ, المنظمة العربية للترجمة–بيروت, ط٤, ٢٠٠٥م (ص ٦٤).

(٩٣) ينظر: المصدر نفسه (ص٦٥).

(٩٤) ينظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة, محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) دار الكتب العلمية – بيروت(١/ ٣٠٣).

(٩٥) ينظر: ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه, مصدر سابق (ص ٢١٣).

(٩٦) ينظر: أسفار العهد القديم في التاريخ اختلاق الماضي, توماس ل. تومسون, ترجمة د. عبد الوهاب علوب, المشروع القومي للترجمة–مصر, ٢٠٠٠م. (ص ٥).

(٩٧) ينظر: خرافة التطور, روبرت جيمس غالغي, ترجمة: فداء ياسر الجندي, دار الوعي للنشر, مركز الفكر المعاصر–الرياض, ط١, ١٤٣٦هـ (ص ١٤).

(٩٨) ينظر: سيكولوجية السعادة, مصدر سابق (ص٣٠).

(٩٩) ينظر: جامع البيان, الطبري, مصدر سابق (١٩/ ٢٦٢). والنكت والعيون, تفسير الماوردي, أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت: ٤٥٠هـ) تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم, دار الكتب العلمية – بيروت. (٤/ ١٤٣).

(١٠٠) أخرجه ابو داود في سننه, برقم(٤٨٣٣). وأخرجه الترمذي في سننه وقال عنه: "هذا حديث حسن غريب", برقم(٢٣٧٨). والحاكم في المستدرك, برقم (٧٣٢٠).

(١٠١) ينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير, زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري(ت: ١٠٣١هـ) المكتبة التجارية الكبرى–مصر, ط١, ١٣٥٦هـ(٤/ ٦٩).

(١٠٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب: من يؤمر أن يجالس، برقم (٤٨٣٢)، والترمذي، كتاب الزهد، باب: ما جاء في صحبة المؤمن، برقم (٢٣٩٥)، وقال: "هذا حديث حسن".

(١٠٣) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر, نجم الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير(ت: ٦٠٦هـ) تحقيق: طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطناحي, المكتبة العلمية – بيروت, ١٣٩٩هـ–١٩٧٩م. (١/ ٤٤٧).

(١٠٤) ديوان الحماسة (١/ ٣٣٧), والبيت لدريد بن الصمة, شاعر وفارس جاهلي من هوازن قتل يوم حنين وكان مع مَالِك بن عَوْف النصري قائد المشركين يوم حنين يستشيره في أمر الحرب وقتل يومئذ كافراً, وكان شيخاً كبيراً قد فقد بصره, ينظر: المؤتلف والمختلف, أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني(ت: ٣٨٥هـ) تحقيق: موفق بن عبدالله بن عبد القادر, دار الغرب الإسلامي – بيروت, ط١, ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م. (٢/ ١٠٠٩).

(١٠٥) سهيل بن عمر بْن عبد شمس بن عبد ود بْن نصر بْن مالك: أحد أشراف قريش وعقلائهم وخطبائهم وساداتهم في الجاهلية, أسلم في فتح مكة, لما مات النّبيّ ﷺ قام خطيباً فقال: "يا معشر قريش، لا تكونوا آخر من أسلم، وأول من ارتد، والله إن هذا الدين ليمتدن امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلَى غروبهما..". مات ﷺ بالطاعون سنة ثمان عشرة للهجرة في الشام. ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة, أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري عز الدين ابن الأثير(٦٣٠) تحقيق: علي محمد معوض و عادل أحمد عبد الموجود, دار الكتب العلمية –بيروت, ط١, ١٤١٥هـ-١٩٩٤م. (٢/ ٥٨٥). والإصابة في تمييز الصحابة, أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني(ت: ٨٥٢هـ) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض, دار الكتب العلمية-بيروت, ط١, ١٤١٥هـ(٣/ ١٧٨).

(١٠٦) ينظر: جامع البيان, الطبري, مصدر سابق (٢٢/ ٢٥١).

(١٠٧) ينظر: الفوائد, مصدر سابق (ص ١٦٥).

(١٠٨) صحيح البخاري, كتاب تفسير القرآن, باب قوله: {يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل..}، برقم (٤٩٠٧).صحيح مسلم برقم (٢٥٨٤)

(١٠٩) عن ابن جريج قال: أخبرني بعض أهل العلم أن عمر بن الخطاب ﷺ كتب: (أن لا يحد أمير الجيش، ولا أمير سرية رجلًا من المسلمين حتى يطلع الدرب قافلًا، فإني أخشى أن تحمله الحمية على أن يلحق بالمشركين). ينظر: المصنف, أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني(ت: ٢١١هـ) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي, المكتب الإسلامي-بيروت, ط٢, ١٤٠٣هـ (٥/ ١٩٧).

(١١٠) ينظر: خرافة التطور, مصدر سابق(ص١٤).

(١١١) ينظر: المصدر نفسه (ص٧).